مقدِّمة

على مدى سبعة وثلاثين عامًا من عملي باحثًا أكاديميًّا في علم الأحياء، صادفت أسئلةً لا حصر لها عن التطور والخلق، وقد حاولت في هذا الكتاب أن أجيب على هذه الأسئلة، ونظرًا لأنني تربيت على الإيمان بأن كل الجنس البشري ينحدر من آدم عليه السلام وحواء، وأن أيًّا من البشر والكائنات الأخرى لم تتعرض لأي تطور؛ أذكر أنني صُدمت عندما رأيت الرسوم التي توضح كيف تحولت القردة تدريجيًّا إلى مخلوقات بشرية، وكيف أثبتت الجماجم -التي عُثِر عليها- هذه الحقيقةَ بكل تأكيد! وقال لنا أساتذتنا: إن التطور لم يعد افتراضًا بل هو حقيقة علمية ثابتة؛ ورغم هذا لم يستطع أي من الأساتذة الذين دافعوا عن التطور التأثيرَ في رأيي أثناء سنوات الدراسة في التعليم الأساسي أو الثانوي؛ وعندما بدأت دراسة علم الحيوان وعلم النبات في الجامعة أدركت أن الأسوأ لم يأتِ بعد؛ كانت تُدرَّس مادة التطور إلزامًا في القسم، والأكثر من هذا أن كل المواد الدراسية كانت تُدرس بربطها بسيناريوهات التطور مثل علم الحيوان والنبات التصنيفي وعلوم التشريح المقارن ووظائف الأعضاء والأنسجة والأجنة وعلم الوراثة؛ كانت "فكرة التطور" مفروضة إلى الحد الذي تحولت فيه إلى رؤية عالمية وعقيدة بل إلى مذهب له أتباع، ومما زاد الأمر سوءًا وجود نقص في المطبوعات التي تقدم أفكارًا مخالفة أو معارضة، كما أنني لم أجد معلومات مُرضية في النصوص الدينية تتعامل مع الموضوع دون تجاهل الجانب البيولوجي للموضوع أو التقدم العلمي في ذلك الوقت.

مع هذا الحصار الذي تعرضت له أثناء سنوات الدراسة الجامعية كُنت عرضة للهلاك، أي إنني كنت على وشْك الموت ملحدًا، لكنني نجوت من هذا المصير بفضل صديق أعطاني كتابًا للأستاذ بديع الزمان سعيد النُّورْسِي بعنوان "الطبيعة: سبب أم نتيجة؟"، فكان العمل الأول الذي غيّر مسار حياتي بعباراته القوية المقنعة عن وجود الله وخلقه لكل شيء بعلمه وقدرته المطلقتين. وفي عام ١٩٧٦ حصلت على نسخة من كتاب "الداروينية في ضوء الحقائق العلمية (*Darwinism in the Light of Scientific Truths*)"، وكان الكتاب ترجمة لكتاب جون إن مور[١] "الكروموسومات والتحور وتطور السلالات (*Chromosomes, Mutations, and Phylogeny*)" وكتاب إيه إن فيلد[٢] "كشف خديعة التطور (*Evolution Hoax Exposed*)"، وفي الواقع كان هذا الكتاب أول كتاب أقرؤه يتناول التطور بشكل مباشر.

في السنوات التالية بدأت في متابعة المطبوعات التي تؤيد أو تعارض فرضية التطور، خاصة تلك التي تُنشر في الولايات المتحدة الأمريكية، ومع الوقت كنت قد قرأت عددًا متزايدًا من الأعمال التي تعرض نقاشات تؤيد أو تعارض التطور، وبعد أن أصبحت عضوًا من أعضاء هيئة التدريس تطوعت أن أقوم بتدريس مادة التطور في الوقت الذي أحجم فيه كل أعضاء الكلية عن ذلك، لقد تفادى الأساتذة الآخرون تدريس هذه المادة ليتجنبوا الجدال مع الطلاب وهم يفتقرون إلى اليقين والمعرفة، فلم يستطيعوا مواجهة الآراء المختلفة والمعارضات، لكنني سعيت لتدريس هذه المادة لأنني ركزت على هذا الموضوع المثير للجدل عدة سنوات، لقد أردت

---

(١) Moore, "On Chromosomes, Mutations, and Phylogeny," Creation Research Society Quarterly, December 1972, pp. 159-171.

(٢) Field, The Evolution Hoax Exposed, TAN Books & Publishers, 1971.

أن أدرّسه بأسلوب غير قهري أو متشدد يُظهر التطور كأنه "قانون مُثبت بلا ريب"، بل بأسلوب موضوعي ذي منهاج ديمقراطي، أردت أيضًا ألا تُدرس هذه المادة تحت عنوان "التطور"، بل تحت عنوان آخر مثل "فلسفة علم الأحياء" أو "الفلسفة البيولوجية"، نظرًا لأن الموضوع لا يعتمد على البحث التجريبي ولم يثبت من خلال التجارب والملاحظات.

إن الذين يتابعون التطورات العلمية عن كثب يعرفون أن الأفكار والحركات المضادة لفرضية التطور قد انتشرت بشكل سريع، خاصة في العقود الحديثة؛ ففي كثير من الدول وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، بدأ العلماء في رفع أصواتهم بمعارضة صريحة لفكرة التطور -وهي في الحقيقة مفهوم اكتسب على مدار السنين خصوصية أيديولوجية بدلًا من دليل بيولوجي- فنشروا مقالاتٍ عدَّة ضد فرضية التطور في كثير من المؤسسات والمنظمات، وأخيرًا وصلت آثار هذا التحول في مختلف أنحاء العالم إلى تركيا، إذ كانت فرضية التطور قد ترسخت بصفتها عقيدة ذات عقلية مادية ووضعية؛ أي عقيدة يتم تعليمها وفرضها على الناس بتعنت شديد، ولما قام أنصار فرضية التطور عندنا بجمع توقيعات لاتخاذ قرار بتدريس التطور فحسب دون إشارة إلى عملية الخلق ألبتة، رأيت أنه لا بدّ لي من أن أكتب في هذا.

وفي محاضراتي لطالما كنت أشير إلى كل الادعاءات والدلائل والمناقشات المؤيدة والمعارضة لفرضية التطور، وتركت طلابي يعبرون عن آرائهم بحرية دون تهديد بخصم الدرجات أو بفرض أي ضغط عليهم، ولمست أن المحاضرات أصبحت أكثر كفاءة وتفاعلًا من ذي قبل، وأن الطلاب كان لديهم كثير من الأسئلة أحبّوا أن يطرحوها وعُنُوا حقّا بدراسة الموضوع، لكن رغم هذا كلّه، أصبحتُ أضحوكةَ العقلية

المادية والوضعية التي لها الأغلبية في وطني، ولمواجهة الهجمات العنيفة التي شنّها أولئك الذين يتمنون أن يُتناول موضوع التطور خارج الإطار العلمي، ويُرسَّخ في إطار أيديولوجي، ويُتخذ منه "غطاءً علميًّا" لعقليتهم الماركسية الملحدة، مضيتُ في كتابة مقالات في كثير من الإصدارات تحت أسماء مستعارة، وأُخطط كذلك لكتابة مذكراتي عن التجارب الصعبة المؤلمة التي مررت بها وأنا أستاذ علم الحيوان، لم أتنازل أبدًا عن المكافحة من أجل هذه القضية، رغم أني ظُلِمتُ، فحُرمت من نيل درجة الأستاذية تسع سنوات.

لن أنسى أبدًا لحظة مقاطعة خطابي، وإبعادي بالقوة من فوق منصة المؤتمر الأكاديمي حول "مشكلات تعليم علم الأحياء" الذي أقامته كلية العلوم في جامعة إسطنبول، فلم أُحرم فقط من تقديم بحثي، بل تمت معاقبتي بحذف بحثي من كتاب فعاليات المؤتمر، ومن المواقف الأخرى التي تعكس الأسلوب غير المتحضر لترهيب الأشخاص الذين يختلفون معنا في الرأي أو يختارون الحديث عن شيء مختلف ما حدث مع أستاذ علم النبات الدكتور آدم تاتلي، الذي فُصل من وظيفته في الجامعة لشيء سوى أنَّه ناقش "فرضية التطور المحظور مَسُّها" وكتب عنها.

ورغم المحاولات المكثفة لقمع حججي وإكراهي على الاستقالة أو فصلي من التدريس، لم يستطيعوا العثور على طالب واحد يؤكد الزعم الكاذب بأنني لم أدرس مقرراتي بموضوعية، ووصل بهم الأمر إلى تكليف طالبين ملحدين بتسجيل محاضراتي سرًّا، لكن كل الكمائن التي نصبوها لي باءت بالفشل، لم يتعرض عالم لكل هذا الاضطهاد الأكاديمي في أيٍّ من دول العالم، بما في ذلك الاتحاد السوفيتي الشيوعي السابق. وانطلاقًا من الحكمة القائلة: "لا بد للحق أن ينتصر"،

أجزم أن شيئًا من الظلم والاضطهاد لن يستمر وسيستطيع الناس التعبير عن آرائهم بحرية.

ألا يشير كل هذا إلى أي درجة أصبحت فكرة التطور أيديولوجيا؟ لهذا أضفت لعنوان عملي العنوان الفرعي "نظرية علمية أم أيديولوجيا؟"؛ ولن يضع هذا الكتاب حدًّا لهذا الصراع؛ وفي الحقيقة يجب ألا يتوقع القارئ ذلك من الكتاب، لكن مع هذا لن أقف مكتوف اليدين في وجه المحاولات المستميتة لجعل أيديولوجيا ملحدة أساسًا للنظام التعليمي باسم "العلم" من خلال الإجبار والتلاعب والتلفيق والترويع، ومن المتوقع أن يستطيع كثير من العلماء التعبير عن أفكارهم بحرية بعدما اضطُهِدوا طويلًا في مناخ الدولة الاستبداديّ، وخاصة على يد مديري مجلس التعليم العالي التركي الذين فرضوا الضغوط والسيطرة المستمرة من خلال تطبيق مقاييس قاسية بين ١٩٩٤ - ٢٠٠٨م، وعسى أن تكون المقالات والكتب التي سينتجها هؤلاء العلماء متماشية مع الجو الديمقراطي لدولة تستعد للانضمام إلى الاتحاد الأوربي.

على مدار سنوات عملي أستاذًا مساعدًا أصبحت أدرك حقيقة مهمَّة مفادها أن المقالات والكتب المنشورة عن فرضية التطور لا تقتصر على تلك التي تدافع عنها فقط، بل هناك كثير من المطبوعات المعارضة لفرضية التطور، لكن الغالبية العظمى من طلبة الجامعات لم يكونوا على علم بها؛ نظرًا لأن عملية النشر كانت حكرًا على جماعات معينة ذات نفوذ، شديدة التنظيم، تنادي بأفكار معينة وتتجاهل الأفكار الأخرى، وفوق هذا كله لم تكن شبكة الإنترنت قد ظهرت في ذلك الوقت، لقد عشت في أوقات كان طلاب الجامعة يُمنعون فيها من الكلام لا لشيء سوى أنهم يناقشون بمعرفتهم المحدودة عملية تدريس التطور الاستبداديّة، وكان الأساتذة يسبونهم كأنهم متعصبون رجعيون.

طوال سنوات من النقاش مع الأكاديميين المحليين والأجانب أدركت أن لهم آراء مختلفة عن فكر فرضية التطور، وسواء كان الأكاديميون ملحدين أو مسلمين أو مسيحيين أو "لا أدريين" أي يعتقدون أن وجود الله أمر لا سبيل إلى معرفته، فإنهم لا يقصدون شيئًا واحدًا عندما يتحدثون عن التطور، ورغم انقسام الرأي بين التوجهات التوحيدية والإلحادية فيما يخص فرضية التطور، كانت هناك مجموعة واسعة من الآراء حول التطور؛ لذلك يؤمن الأشخاص المختلفون بأشكال مختلفة من التطور وينادون بها، تبعًا لنظرتهم للعالم والإيمان والفلسفة.

يؤمن الأكاديميون أصحاب الإيمان القوي والإخلاص لدينهم -سواءٌ كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود- أن التطور ليس نظرية علمية، بل عقيدة تستخدم أداةً لإنكار وجود الله، عقيدة قد تم تحويلها إلى مفهوم عالمي ونظام عقائدي.

وهناك أكاديميون إخلاصهم ضعيف لدينهم، ولا ينزعجون من تأثير فرضية التطور على إيمانهم، وهؤلاء رغم إيمانهم بالله فإنهم يتقبلون التطور نظرية علمية، ويؤمنون أن الله قد خلق الكون وَفقًا لآليات ومبادئ التطور.

ويرى الملحدون فرضية التطور واضحة لا شك فيها، فهي حقيقة مثبتة بكل ما في الكلمة من معان، فالتطور عندهم هو أساس كل شيء والشرط اللازم لتشكيل العالم بأكمله، أما بالنسبة للاأدريين فرغم إيمانهم باستمرار عملية التطور تجدهم يعدّون من المستحيل التصريح بأي شيء مؤكد عن بداية الكون أو الحياة.

وهناك أيضًا اختلافات بارزة في الرأي بين المؤمنين بالأديان السماوية، مع أن جميعهم يؤمنون بالله ويعارضون فكرة التطور، فبات من المهم هنا أن نبرز التفسير الإسلامي المتفرد لعملية الخلق الذي يرضي العقل والقلب

معًا، لقد حاولت أن أكون منصفًا ويقظ الضمير في أحكامي، وكنت أضع دائمًا في ذهني أن منظوري الإسلامي قد يجعل بعض الناس يشككون في موضوعيتي؛ ورغم رأي الكنيسة المجامل للتطور، وتأكيد الباباوات أن فرضية التطور يمكن توفيقها مع الدين المسيحي، أجدني مقتنعًا أن الإيمان بالله في الدين الإسلامي والإيمان بالتجلي المطلق لصفات الله القوي العليم المُبدئ المعيد القدير يُفسران ظاهرة الخلق بصورة أفضل، بالإضافة إلى ذلك فإن الاعتقاد بأن الخالق هو كيان ساكن، ووصف الكون بأنه ساعة قد تم ملؤها ثم تركت، أو أنّ الخالق "ترك الكون لمصادفات فرضية التطور"، كلُّها اعتقادات بعيدة تمامًا عن العقيدة الإسلامية، وعدا الذين يؤمنون بالله ويعارضون فرضية التطور، فمن يهتمون بشدة بكونهم "علميين" وينبذون دينهم من أجل "العلم" المقدس هم أغلبية أتباع الديانات السماوية الأخرى.

ومن الجدير بالذكر أيضًا أن بعض الباحثين المسلمين يزعمون أن "فرضية التطور" يمكن تفسيرها في ضوء الإسلام، ويدّعون أن بعض الآيات القرآنية تُشير إليها، لكن لا دليل على ما يقولون؛ فالآيات المشار إليها تتحدث عن الخلق والنمو الروحي بوصفهما حقيقة دامغة، والآن بعد هذه المقدمة تعالوا نشرع في لبّ الموضوع.

أسئلة لا حصر لها

إن أسئلة مثل: "من أين أتينا؟" و"كيف أتينا إلى هذا العالم؟" و"ما مصيرنا؟" هي ببساطة أكثر الأسئلة التي شغلت أولئك الذين يُعْمِلونَ عقولهم، وربما تكون فرضية "التطور" هي أشهر الفرضيات المُقدمة لنا إجابة عن السؤال الأول، هذا إذا لم ننظر إلى المعلومات الخاصة بالخلق التي تقدِّمها الأديان السماوية.